مدخل إلى نهاية ما قبل التاريخ في إفريقيا جنوب الصحراء

إعداد الأستاذ نور الدين شعباني

المحور الأول: علم الآثار في تسليط الضوء على هذه الحقبة التاريخية .

مقدمة:

لدراسة التاريخ خلال الفترة التي سبقت الكتابة أو التدوين، والتي تعرف بما قبل التاريخ فلابد من اللجوء إلى علم الآثار بسبب عدم وجود وثائق مكتوبة تؤرخ لهذه الفترة، وخاصة تاريخ ما قبل التاريخ الإفريقي الذي يبقى ميدانا خصبا مازالت الدراسات الأثرية تحتاج إلى كثير من العمل لتستوفيه حقه.

أولا: تعريف علم الآثار:

تعتمد كتابة التاريخ على دلائل مكتوبة أو شواهد مادية، حتى تتمكن من استحضار الأحداث التاريخية، خاصة بالنسبة لتاريخ العصور ما قبل التاريخ أين انعدمت فيها الكتابة والتدوين، فقام هناك علم من اجل هذه الغاية ألا وهو علم الآثار، الذي ظهر في منتصف القرن الثامن عشر الذي لديه أدواته وأهدافه ومناهجه الخاصة التي تطورت مع الوقت ، لكن هذا العلم هو أيضا لا يمكنه أن يستغني عن علوم أخرى مساعدة مثلما يحتاج علم التاريخ لعلوم مساعدة.

وإذا حاولنا أن نعرِّف هذا العلم فغننا نجد هناك بعض التعاريف أهمها:

الأول: علم الآثار هو العلم الذي يقوم بدراسة الماضي من خلال المخلفات المادية.

ثانيا: يقول بأن علم الذي يقوم بدراسة الماضي من خلال المخلفات المادية والثقافية أي الحضارية التي تركتها الشعوب القديمة .

التعريف الثالث: يقول بأنه العلم الذي يقوم بأعمال التنقيب والحفر من خلال النزع الممنهج للطبقات الأثرية بغية الحصول على المعطيات والأدلة الأثرية المادية التي تحتاج فيما بعد للدراسة والتحليل والمقارنة، من أجل الوصول إلى نتائج ومعطيات جديدة حول قضايا جوهرية تمس نشأة وتطور الحضارات البشرية منذ ما قبل إلى يومنا التاريخ .

وتقسم المخلفات الحضارية التي يقوم علم الآثار بدراستها بحسب طبيعتها وحجمها إلى آثار منقولة وآثار غير منقولة.

1.الآثار المنقولة: هي المخلفات التي يطلق عليها اسم اللُّقى الأثرية، وقد تكون أدوات حجرية وفخارية أومعدنية، بالإضافة إلى اللُّقى العضوية كالعظام البشرية والعينات الخشبية والكربون أو اللُّقى الطبيعية النباتيةُ أو المعدنية والحيوانية. و اللُّقى الفنية كالرسوم الجدارية والرسوم على الفخار والخزف والفسيفساء، و اللُّقى النفيسة كالحلي الذهبية والفضية والأحجار الكريمة. و اللُّقى المعدنية كالأسلحة والنقود، واللُّقى النسيجية كالملابس والأحذية. والأدوات الطقوسية كالتمائم والتماثيل التي كانت تستخدم في الطقوس والعبادات القديمة. عموما فهي كل ما يجده الأثري ويخدم دراسته في الحصول على معلومات حول طبيعة حياة السكان في الموقع الذي ظهرت فيه تلك اللُّقى.

2.الآثار غير المنقولة: مما لا شك فيه بأن اللُّقى غير المنقولة تشمل كل ما خلَّفه الإنسان من معالم وصروح وأبنية سواء كانت بيوت أو معالم وصروح اقتصادية أو دينية أو اجتماعية، وحتى المدافن ما كان منها تحت الأرض أو فوق الأرض، والمسارح، و الكنائس والأديرة وكل ما بني بيد ذلك الإنسان. وبالتالي فإن كل ما يكتشفه عالم الآثار بدءا من الصروح الكبيرة والمشيدات المعمارية وانتهاءً بالحبوب يسهم في رسم صورة عن معالم الحياة في المجتمعات القديمة.

ثانيا علم الآثار الإفريقي:

تاريخ غرب أفريقيا: أهم ما يميز تاريخ إفريقيا الغربية القديمة بشكل عام هي عصور ما قبل التاريخ، والعصر الحديدي.

شهدت غرب إفريقيا في العصر الهولوسيني بداية اكتشاف الزراعة و الاستقرار، وبحلول عام 400 ق الميلاد بدأت غرب ووسط إفريقيا تتصل مع حضارات البحر المتوسط، فبدأت المعاملات التجارية وتصدير الذهب والقطن والمعادن والجلود، بالتبادل مع النحاس والخيول والملح والقماش والخزر[1].

تطوّرت حضارة نوك (منذ 1500، وحتى 200/ 300 قبل الميلاد، واختفت بطريقة مجهولة حوالي 500 للميلاد، واستمرت بذلك حوالي 2000 سنة.

---

1 جمع **خرزة، و** هي قطعة صغيرة تزينية مشكلة من أنواع وأحجام مختلفة مثقوبة ومنظومة بخيط سميك تصنع من الزجاج، البلاستيك، أو الخشب. وتتراوح أقطار الخرز من 1 ملم إلى1 سم. وهي أقدم حلية معروفة هي زوج من الخرز مصنوعة من أصداف حلزون البحر (ناسريس) تعود إلى 100,000 سنة، وصناعة الخرز هو فن أو حرفة لنظم الخرز بعضها إلى بعض. تنظم الخرز بعضها إلى بعض بخيط خاص أو بسلك مرن، أو تلصق إلى الملابس أو الطين.

1. عصر الهولوسيني أو (**العصر الحديث**): تسمى باللاتينية (Holocene)، وهي ثاني وآخر فترة من العصر الرباعي، حيث تمتد من حوالي 11,700 سنة مضت إلى يومنا هذا. ويمثّل «**العصر الهولوسيني**» الفترة الأخيرة من الأزمنة الجيولوجية.و هو العصر الجليدي أو البليستوسين، وعلى هذا الأساس يعدّ الهولوسين أو «العصر الحديث» استمراراً لعصر البليستوسين (العصر الحديث الأقرب) من حيث توزع القارات والمحيطات والكائنات الحية. غير أنّ تراجع الجليديات إلى مواقعها الحالية خلّف الكثير من البحيرات الكبيرة في المناطق التي كانت تغطيها.

استمر في **الهولوسين** تصدّع بعض الطبقات في مناطق الجبال الحديثة التكوّن نتيجة لحصول زلازل مهمة، كما حصلت اندفاعات بركانية بجوار هذه السلاسل الجبلية انبثقت من شقوق أرضية أو من براكين لايزال بعضها في أوج نشاطه في العصر الحالي.كما تعرضت القشرة الأرضية في المناطق التي هبطت بتأثير ثقل الجليديات في البليستوسين إلى حركات توازنية، إذ بدأت بالنهوض بعد أن زال حملها من الجليديات وبالعودة إلى مواقعها الأصلية. ويتجلّى هذا النهوض في مناطق حول بحر البلطيق والقطب الشمالي وحول البحيرات الكبرى في أمريكا الشمالية، إذ ترتفع هذه المناطق بمعدّل 13 متراً كل ألف سنة.

المحور الثاني: حضارة نوك:

أولا: **نشأتها:**

ظهرت حضارة نوك في نيجيريا ألف سنة قبل الميلاد، أو 1500 قبل الميلاد، و انطفأت بشكل غريب في منتصف أو نهاية الألف الأولى للميلاد(أي بين 500و1000م) لأسباب غامضة لكن يرجح أن سبب زوالها يعود إلى وباء قاتل أو مجاعة. و ينظر إليها اليوم على أنها كانت حضارة متطورة جدا سواء على مستوى التنظيم الاجتماعي أو على مستوى النقاء. وذلك في عصر كانت فيه إفريقيا الجنوبية تعيش في العصر الحجري الحديث(نيوليتي). وهو العصر الحجري الذي سادت فيه حضارة قاطفي الثمار والصيادين الذين كانوا يستعملون أدوات حجرية فقط. وقد رجح علماء السلالات البشرية أنهم ينحدرون مباشرة من سلالة المصريين القدماء وهو ربما ما يفسر جانب من نضج هذه الحضارة التي تعتبر أقدم حضارة أنتجت صناعة الفخار في إفريقيا جنوب الصحراء.

امتدت ثقافة نوك في زمان العصر الحجري الحديث (النيوليتي) وصعودا الى العصر الحديدي في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. فهي تكون قد سبقت تأسيس روما بحوالي 500 عام على الأقل، وكان النوك مجتمعًا منظما، حيث عرف مستوطنات دائمة ومناطق خاصة بالأراضي الزراعية والتصنيع. ومع ذلك ، لا يُعرف الكثير عن هوية النوك.

قامت هناك أبحاث أثرية بطريق الصدفة حوالي عام 1943، إذا قام عمال شكة المياه في نيجيريا بالصدفة بحفر شظايا من الفخار أثناء عمليات تصفيح الوديان الجنوبية والغربية في نيجيريا. فتم نقل تلك القطع الفخارية المكسورة إلى بيرنارد فاغ (Bernard Fagg)[1] التي اعتبرت من الاكتشافات الأثرية، عالم الآثار، الذي اشتبه على الفور أهميتها. بعد ذلك ، بدأ جمع القطع بعد القطع ، أثناء التنقيب عن المزيد. باستخدام تقنيات جديدة ، اكتشف لاحقًا أن القطع الأثرية كانت في الواقع من مجتمع غربي

---

1 برنارد إيفلين بولر فاج (8 ديسمبر 1915 - 14 أغسطس 1987) عالم آثار بريطاني وأمين متحف قام بعمل مكثف في نيجيريا قبل وبعد الحرب العالمية الثانية. درس برنارد فاج الكلاسيكيات وعلم الآثار والأنثروبولوجيا في كلية داونينج بجامعة كامبريدج. بعد التخرج بدأ العمل في الإدارة الاستعمارية البريطانية في جوس بنيجيريا عام 1939. حفر في ملجأ روب الصخري على هضبة جوس في عام 1944 ، وهو موقع يحتوي على أدوات تعود إلى العصر الحجري القديم والتحف اللاحقة ، بما في ذلك الفخار الذي يعود تاريخه إلى حوالي 2000 عام. اكتشف فاج لأول مرة الاكتشافات الأثرية لما أصبح يعرف لاحقًا بثقافة نوك ، بعد قرية نوك حيث تم العثور على أول تماثيل من الطين. قام بحفر خاضع للرقابة للموقع في تاروجا، حيث وجد تماثيل من الطين وخبث الحديد مع تواريخ الكربون المشع من حوالي القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد

إفريقي قديم يرجع تاريخه إلى ما قبل 500 عام على الأقل، أطلق فاج (Fagg) على هذه الثقافة نوك ، نسبة إلى قرية بالقرب من المكان الذي تم اكتشافه لأول مرة.

بعد فاغ(fagg) توقفت التنقيبات لأسباب تتعلق بالاستعمار والتمييز العنصري ومشاكل سياسية وأمنية، ولم يتم إجراء مزيد من البحوث المنسقة حول ثقافة نوك إلى القرن الحادي والعشرين. عندما أجريت بحوث وكانت النتيجة مذهلة ورائعة. حيث أظهرت نتائج البحث التي استعمل فيها تقنية الكاربون14، أن ثقافة Nok استمرت ما بين 1200 ق.م. و 400 م ، ولكن لم يُعرف الكثير عن الكيفية التي بدأت بها أو ما الذي أنهاها.

ففي سنة 1977م، كان عدد التحف الأثرية من الفخار التي تم جمعها خلال أعمال تنقيب منجمية قد بلغ 153 تحفة، كلها مستخرجة من سرير الأنهار الجافة في منطقة السفانا في وسط و شمال نيجيريا جنوب غرب هضبة جوس(Jos). بعدها تمت اكتشافات اثرية أخرى شملت مساحة 480 على 320 كم2 تشمل المجرى الأوسط لنهر النيجر و المجري الأسفل لنهر بينو (Benue).

كما شملت مدن نيجيرية مثل كاتسينا وسوكوتو الواقعتان في أقصى شمال غرب منطقة نوك عدة تماثيل لرؤوس بشرية أو مجسمات إنسانية كاملة أو في بعض الأحيان مجسمات حيوانية(خاصة الثعابين) مصنوعة من الفخار و بمختلف الأحجام.

ثانيا: المظاهر الصناعية لحضارة نوك:

إن الجودة العالية والبراعة الفنية التي تميزت بها المنحوتات الطينية[1] تعد مؤشرا على أن ثقافة نوك تميزت بالرقي التقدم. كما يعد مؤشرا على تطورهم في إقامة الأفران العالية، وحسهم الفني وخيالهم الواسع الذي تجلى في تلك المنحوتات الدقيقة والجميلة.ويدعم هذا الادعاء بشكل أكبر وجود المصنوعات الحديدية (وهي مهارة تستغرق وقتًا كبيرًا وتتطلبها كثيرًا من قِبل الخبراء الذين يجب على الآخرين تلبية احتياجاتهم الأساسية من الطعام والملابس)، وقد أظهرت النتائج الأثرية أنه كانت للنوك حياة مستقرة ثابتة.

في حوالي 500 قبل الميلاد ، كان النوك قد توصلوا إلى صهر الحديد وتصميم أدوات حديدية. ولكن علماء الآثار ليسوا متفقين إن كانت تقنيات صهر الحديد كان تطورا محليا مستقلا للنوك أم أنها كانت مستوردة مستقل أو تم استيرادها.

إن المزيج من الأدوات الحجرية والحديدية التي اكتشفت في بعض المواقع تضفي مصداقية على النظرية القائلة بأن مجتمعات غرب أفريقيا تخطت العصر النحاس بشكل سريع على خلاف بعض أجزاء القارة

---

1 انظر الملحق رقم1

الأوروبية أين استمر عصر النحاس(البرونز) منذ ما يقرب من ألف عام ، ولكن في غرب إفريقيا ، يبدو أن المجتمعات قد تحولت مباشرة من العصر الحجري الحديث إلى العصر الحديدي ، وهذا كان على ـــ ـــالأرجح بقيادة نوك.

ثالثا: المظاهر الثقافية لحضارة نوك:

ازدهرت ثقافة نوك في جنوب غرب إفريقيا (نيجيريا الحديثة) خلال العصر الحديدي ، من القرن الخامس قبل الميلاد. إلى غاية في القرن الثاني الميلادي. تشتهر نوك بنقوشها على رؤوس الطين ونقوش للشخصيات البشرية ، وهي أول ثقافة معروفة في غرب إفريقيا تنتج مثل هذا الفن وربما أول ثقافة جنوب الصحراء الكبرى لإتقان تقنية صهر الحديد.

وقد تم تسمية ثقافة نوك على اسم المدينة التي تم فيها اكتشاف القطع الأثرية الأولى. كانت في الغالب منحوتات مجزأة ، مدفونة تحت حوالي 8 أمتار من الرمال والأرض ، والتي تم التنقيب عنها خلال عمليات التنقيب المحلية عن القصدير في النصف الأول من القرن العشرين. ازدهرت ثقافة نوك على تقنية صهر الحديد التي مكنت من تصنيع الأدوات الحديدية. تقدم ثقافة نوك أقدم مثال على تكنولوجيا صهر الحديد في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، والتي ربما أتت من قرطاج إلى الشمال أو ، على الأرجح ، نظرًا للحاجز الهائل للصحراء ، من النوبة إلى الشرق. قد يكون اختراعًا محليًا ولكن للأسف هناك القليل جدًا من الأدلة لدعم أي من هذه النظريات الثلاث مقارنة بالنظريتين الأخريين. مهما كان أصل هذه الأفكار ، فقد سمحوا لـ Nok بالمرور مباشرة من العصر الحجري إلى العصر الحديدي ، دون المرور بمرحلة العصر البرونزي ، وهي نموذجية للتطورات التي لوحظت في أماكن أخرى.

تم اكتشاف بقايا حوالي 13 فرنًا لصهر الحديد في تاروجا (55 كم جنوب شرق أبوجا). تم استخدام أدوات حديدية متينة ، مثل المعاول والفؤوس اليدوية والسواطير ، لتحسين كفاءة الزراعة. لذلك يمكن لمزارعي نوك زراعة الحبوب مثل الذرة الرفيعة والخضروات مثل القرع (التي كانت ممثلة في الطين). كشفت الحفريات في Taruga عن وجود أقدم مستوطنة معروفة لثقافة نوك ، كانت مأهولة بالسكان بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد ، و وفقًا لبيانات الكربون المشع من الفحم الموجود في أفران الحديد فإنه على الرغم من وصول تكنولوجيا الحديد ، إلا أن الأدوات الحجرية كانت لا تزال مستخدمة، وخاصة الأدوات الكبيرة ، مما يشير إلى أن المعدن لا يزال يعاني من نقص في المعروض. وكانت نوك تتألف من أكواخ من الجص ، ولكنها لم تكن متينة بشكل يسمح لها بان تعمر طويلا ، ولكن تم بناء العديد منها حيث كانت تتألف من شكل دائري من الحجارة ، تستمر الدراسات الأثرية إلى أن فترة ثقافة نوك التي قد تعود إلى 900 قبل الميلاد.

انتشرت ثقافة نوك في وسط البلاد ، وكانت تغطي مساحة قدرها 78000 كيلومتر مربع ، أي ما يعادل حجم البرتغال تقريبًا. ومع ذلك ، هناك اختلافات إقليمية في أنواع الأدوات والفخار المصنوع في مواقع نوك المختلفة. إذ يشير اكتشاف رؤوس الأسهم والرماح الحديدية أيضًا إلى أن الحياة لم تكن سلمية دائمًا بين نوك أو القبائل المنافسة لهم. سبب تراجع ثقافة نوك حوالي 200 م غير معروف ، ولكن يتضح من الانخفاض الحاد في إنتاج الفخار. أن يكون سبب ذلك يعود إلى أن الجناة المعتادون قد أفرطوا في استغلال الموارد الطبيعية، أو ربما يعود إلى فترة تغير المناخ ، أو بسبب الحروب الأهلية ، أو بسبب وصول الممالك المتنافسة لها إلى المنطقة، أو إلى كل هذه العوامل الأربعة.

رابعا: النحت والفخار نوك

أنتجت ثقافة نوك منحوتات لرؤوس بشرية وشخصيات بشرية وحيوانات في الطين، وهي أقدم منحوتات تم إنتاجها في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. غالبًا ما كانت رؤوس البشرية المنحوتة بالحجم الطبيعي وكانت عبارة عن جزء من تمثال كامل، لكن هذا الجزء من الجسم عادة ما كان يُفقدً . في الواقع، تضررت معظم االتماثيل عندما تم اكتشافها واستخراجها بسبب المياه وهذا ما يصعب تحديد شكلها الكامل و الاصلي و غعادة تركيبه.

عندما يتم إطلاق تمثال مجوف من الطين في الفرن ، فإن الغازات وبخار الماء الذي يتراكم ويتوسع في الداخل يمكن أن يتسبب في تكسير التمثال أو حتى انفجاره تمامًا. يتمثل أحد الحلول في حفر ثقوب هوائية في التمثال وقد فعل الخزافون Nok هذا ، ولكن بلمسة فنية. كانت العيون والفم والأنف وثقوب الأذن جميعها ذات فتحات طبيعية المظهر ، والتي لم تنتقص من التأثير الجمالي العام للشكل. على عكس المنحوتات الكبيرة ، فإن التماثيل الصغيرة صلبة.

المحور الثالث: المواقع الأثرية لما قبل التاريخ الإفريقي

أدرجت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة) اليونسكو منذ سنة 1978 وإلى يومنا هذا 129 مواقعا للتراث في أفريقيا .ضمن قائمة مواقع التراث العالمي، وتقع هذه المواقع في 37 بلدا و يمكن أن نعرض اهم المواقع وهي:

1.الدوائر الحجرية في سينيغامبيا بين غامبيا والسنغال:

تشكّل المجموعات الأربعة الكبيرة لهذه الدوائر المغاليثية تجمّعاً يضمّ أكثر من ألف نُصب تذكاري على رقعة نهر غامبيا بعرض 100 كيلومتر وطول 350 كيلومترا. تضمّ المجموعات الأربع المعروفة بأسماء سين نغايين، وانار، واسو ،كرباتش ، وهي 93 دائرة بالإضافة إلى الركام الترابي فوق القبر، والتلال الجنائزية. وقد تمّ تنقيب بعضها، فأظهرت مادةً أثرية يمكن تأريخها بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن السادس عشر ميلادية. وتشكّل دوائر الحجارة المنحوتة بدقة وركامها الترابي منظراً طبيعياً مقدساً تكوّن على مدى أكثر من 1500 عام، وتعكس مجتمعاً مزدهراً مستقرا ومنظماً خير التنظيم.

2.مواقع أثرية للعصر الباليوليتي(العصر الحجري القديم السفلي) الإفريقي: بدأ العصر الباليوليتي في إفريقيا منذ 3.3 مليون سنة مع أقدم موقع معروف من عصور ما قبل التاريخ والذي أنتج أدوات حجرية وهو موقع لومكوي3 (Lomekwi 3) في كينيا.

أ. لومكوي3 (Lomekwi 3) : هو موقع أثري في منطقة بحيرة توركانا في شمال كينيا. تضم أجسام حجرية منحوتة يعود تاريخها إلى 3.3 مليون عام ، وهي أقدم أدوات ما قبل التاريخ اكتشفت عام 2015. يتحدى هذا الاكتشاف الفكرة المقبولة عمومًا حتى ذلك الحين والتي مفادها أن ظهور الأدوات الحجرية سيكون مرتبطًا بظهور جنس الإنسان وكذلك بتغير المناخ . للإشارة إلى هذه الصناعة الحجرية القديمة جدًا ، والتي سبقت **أولدوان (Oldowan)**[1] بحوالي 700000 عام وبحوالي نصف مليون سنة قبل أقدم حفرية .

1أولدوان(Oldowan): هي صناعة حجرية من العصر الحجري القديم السفلى ، تتميز بتقنيتها البدائية. يعود اسم Oldowan إلى المجمع الشاسع للمواقع الأثرية والأحفورية في مضيق Olduvai في تنزانيا ، حيث تم التعرف عليه وتعريفه من قبل لويس وماري ليكي في عام 1936. في الأصل ،كان المصطلح يشير فقط إلى الصناعات بين 2.6 و 1.4 مليون سنة قبل الحاضر في شرق إفريقيا. بالامتداد ، فقد أصبح يشير إلى جميع الصناعات قبل الوضع 2 أو Acheulean ، بما في ذلك خارج إفريقيا. في فرنسا ، تم استخدام المصطلحين Chellean و Abbevillian أيضًا لتعيين الصناعات ذات الأسطح الخشنة قبل Acheulean ، لكنها سقطت تدريجياً في الإهمال.

استمرت مع صناعة Oldowan، منذ 2.6 مليون سنة، ثم مع صناعة أشولان(Acheulean)[1] ، التي ظهرت في شرق إفريقيا منذ 1.76 مليون سنة. ظهرت صناعات العصر الحجري القديم الأوسط في إفريقيا منذ حوالي 400000 عام ، ولكن لها تعايش طويل مع Acheulean ، والتي يرجع تاريخ آخر مواقعها المعروفة إلى حوالي 150.000 عام.

المـــــــلاحـــــــق

ملحق رقم1:

---

1 يشير مصطلح – Acheulean النمط 2 من خصائص الصناعة الحجرية المميزة للعصر الحجري القديم الأدنى. ظهرت لأول مرة في شرق إفريقيا منذ 1.76 مليون سنة ، واختفت تمامًا من المشهد الأثري منذ 150 ألف عام فقط ، بينما ظهرت صناعاتها الحجرية من النمط 3 في إفريقيا منذ 500000 عام قبل الوقت الحاضر ، وفي الهند حوالي 385000 عام.AP

المحور الرابع: إسهامات العلوم المساعدة ف في ما قبل تاريخ إفريقيا

رغم أهمية علم الآثار في دراسة ما قبل تاريخ إفريقيا إلا أن هناك مشاكل تواجه علماء آثار ما قبل التاريخ في لإفريقيا تتعلق بدراسة المظاهر الثقافية الدقيقة مثل الثقافة والأدب وسيرة بعض الشخصيات وأسماء الأفراد. فلا بدَّ من تأسيس علم مختلف يوضح لنا مختلف الجوانب من الثقافة الأفريقية وهو علم يحل محل الأدب المكتوب في المناطق الأخرى. حيث يشكل هنا التواتر الشفهي المتوارث عن الأجيال من تفصيلات دقيقة عن تاريخ المجتمعات في غياب الكتابة والتدوين التاريخي. فاللغة تقوم بدور كبير في تأكيد وتثمين المعلومات المستقاة من علم الآثار.

وهنا يصبح جلياً ضرورة استخدام مناهج متنوعة لشرح ماضي أفريقيا. حيث يمكن استخدام الدراسات في مجال اللسانيات والتواتر الشفهي، ولكن هذا يمكن تطبيقه على الفترات الحديثة نسبياً.

1: أهمية علم الآثار الأفريقية

يستحيل على عالم الآثار دراسة الحياة اليومية للناس وإدراك أسماء الأفراد أو شخصياتهم. كما انه يجد صعوبة في التوصل إلى بعض الاستنتاجات عن الأنظمة الاجتماعية والأوضاع السياسية. لكنه، من جانب آخر، فان تفسير عالم الآثار للمهارات التقنية أو للنشاطات الاقتصادية، مثل الصيد والزراعة أو رعي الحيوانات المدجنة، يكون أكثر تفصيل وموثوقية من تلك التي يمكن الحصول عليها عبر وسائل الأخرى من البحث.

بالنسبة للدارسين لأفريقيا فإن معطيات البحث الأثري تمثل مصدراً رئيساً للمعلومات عن ماضي القارة، بل أنها تمثل المصدر الأساسي بالنسبة للجزء الأعظم من مرحلة ما قبل التاريخ في أفريقيا فقد مكنتنا من معرفة الكثير من الظواهر الطبيعية مثل التصحر والقبلية وهي معطيات تساعدنا على تعزيز استنتاجاتنا بالنسبة للتطور الاقتصادي والسياسي. فعلم الآثار الأفريقية وثيق الصلة بما هو أبعد إلى الخارج من حدود قارته نفسها. حيث يجد علماء الآثار وعلماء آثار ما قبل التاريخ في المناطق الأخرى الكثير من الفوائد التي تم التوصل إليها من خلال الأبحاث الأثرية الأفريقية، وذلك من حيث ما يحتويه من معلومات لا نظير لها عن أقدم مراحل تطور الإنسان.

ولأن معظم أفريقيا قد تعرض لتغيرات بيئية أقل حجماً نسبياً مقارنة بما شهدته المناطق المتجمدة سابقاً في اورآسيا وأمريكا الشمالية، فقد توفرت في أفريقيا معطيات هائلة من شأنها أن تساعد في تفسير النشاطات المعيشية لإنسان ما قبل التاريخية. كما توفر أفريقيا إمكانيات رائعة لاستخدام شهادة علم

الآثار بشهادة الدراسات في مجال علم اللسانيات والتاريخ الشفهي، ولتفسير معنى الفن الصخري على ضوء أنظمة المعتقدات السائدة

2.أهمية علم اللسانيات:

تمثل اللغة وسيلة هامة لتصنيف شعوب أفريقيا. فهو معيار أساسي على شعور الفرد بالهوية والانتماء إلى مجموعة. إلى جانب ذلك فان للغة صلاحية تاريخية طالما أنها وسيلة و أداة للحصول على المعرفة من الأعضاء الآخرين لتلك المجموعة.

يوجد اتفاق إلى حد بعيد بين علماء اللسانيات بشأن عائلات اللغات الأساسية في أفريقيا. تنتمي اللغات المتحدث بها اليوم في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية للقارة إلى العائلة الرئيسة المعروفة عموماً باسم "الآفرو–آسيوية" أو "الاريترية". وتضم هذه العائلة لغات البربر في شمال أفريقيا،واللهجات الكوشية المتمركزة في إثيوبيا والصومال، وكذلك اللغات السامية واسعة الانتشار التي تنضم إلى عضويتها الحالية اللغات العربية والأمهرية والعبرية.

إلى الجنوب تبرز منطقة غير منتظمة التشكل تغطي جزءاً كبيراً من وسط الصحراء وجنوبها بالإضافة إلى جنوب سودان وادي النيل، وجزءاً من السافانا المحيطة الممتدة إلى أجزاء من شرق أفريقيا حيث تصنف اللغات الحالية في غالبها بحسبانها نيلية–صحراوية، مع تفرعاتها الرئيسة النيلية والسودانية. ويعتقد بعض علماء اللسانيات أن السونغاي، التي تشكل لغة التحدث لسكان منحنى نهر لنيجر، تنتمي بصلة قرابة للمجموعة النيلية–الصحراوية. يمكن أن يكون التوزيع الحالي للغات النيلية – الصحراوية مؤشراً على كون تلك اللغات كانت منتشرة في السابق على امتداد منطقة أكثر اتساعاً.

تنتمي معظم اللغات الحالية في غرب أفريقيا لعائلة لغات النيجر–الكونغو التي يمكن تمديدها لتشمل اللغات الكردفانية المتحدث بها في غرب سودان وادي النيل. طورت تلك اللغات امتداداً معلوماً في غرب أفريقيا. من جانب ثان فان توزع مجموعة فرعية واحدة من لغات النيجر – الكونغو يمتد ليشمل أجزاء أكبر من وسط أفريقيا وجنوبها باستثناء أقصى الجنوب الغربي الذي تسود فيه لغات البانتو. ويلاحظ انه رغم كبر منطقة انتشار لغات البانتو فإنها تظهر درجة شبه قوية نسبياً بعضها بالأخرى. يقارب الحد الجنوبي للغات البانتو التخوم الشمالية للقطاع الغابي الاستوائي. وفي القطاع الغابي للسافانا تنتمي لغات اواماوا والاوبانجي إلى عائلة النيجر–الكونغو.

كما أن الشعوب المتحدثة بالبانتو انتشرت من المنطقة الشمالية الغربية إلى العروض المجاورة لخط الاستواء خلال مجرى آلاف السنوات القليلة الماضية. حل أولئك السكان في أجزاء معتبرة من هذه المنطقة، أو امتصوا شعوباً كانت تتحدث بلغات العائلة الخوسية كما هو موجود الآن في أقصى الأجزاء

الجنوبية الغربية للقارة. تلك هي لغات الخوي والسان اللتين يطلق على المتحدثين بهما في بعض الحالات مصطلحي الهوتنتوس والبوشمان اللتين احتفظ المتحدثون بهما بأنماط حياتهم القائمة على الصيد والرعي حتى أيامنا هذه. وهناك مؤشرات دالة على انتشار لغات ذات قرابة بالخويسانية في الأزمان المبكرة شمالاً حتى منطقة الحدود الكينية التنزانية الحالية، لكنه في المناطق الأبعد غرباً فان امتداد انتشارها الشمالي أقل موثوقية.

تقدم تلك اللغات الحديثة المعطيات التي ينشئ علماء اللسانيات على أساسها استنتاجاتهم. انه ومن خلال دراسة توزيع الأشكال اللغوية الحديثة يكون بمقدور عالم اللسانيات إعادة بناء بعض السمات الخاصة بلغات الماضي التي اشتقت منها اللغات الحديثة، وان يقترح المناطق التي تم التحدث فيها بتلك اللغات السلف. المفردات المعروفة عن تلك اللغات السلف يمكنها أن تقول لنا شيئاً عن أنماط حياة المتحدثين بها وعن الأشياء التي اعتادوا عليها. تنتقل الكلمات، نتيجة الاتصال الناشئ بين الشعوب، من لغة إلى لغات مجاورة. تلك الكلمات المنتقلة يمكن تتبعها هي الأخرى. عن طريق مثل تلك الدراسات يصبح ممكناً إعادة تركيب ما قبل التاريخ اللساني لأفريقيا بصورة متماسكة.

ليست لدينا، بالطبع، معلومة محددة عن السرعات المتفاوتة التي تسير بها عملية التغير اللغوي. فقط في حالة اللغات ذات التاريخ المكتوب الطويل يكون من الممكن حساب تلك السرعة بدقة. علم اللسانيات بمفرده يمكنه أن يقدم فقط ترتيب نسبي للعمليات والأحداث إلى جانب تقديم مبدئي للغاية للامتدادات الزمنية. لا بدَّ من النظر بقدر من الاحتراس للصيغ الزردمة كرونولوجية (وهي طريقة لحساب الأعمار التي وقعت فيها تطورات لغوية)، بخاصة لدى تطبيقها في محتويات غير كتابية طالما أن تلك الصيغ تفترض أن التغير اللغوي يحدث بنسبة متسقة.

على كل فانه حين تكون هناك روابط بين التواترات المستقلة القائمة أساساً على علم الآثار وعلم اللسانيات فان كرونولوجية اللسانيات يمكنها أن تقف على أرضية أكثر متانة. إن إعادة التركيب التاريخي القائمة على قاعدة الدراسات اللسانية يمكن أن تقدم دعماً محدداً للبينة الآثارية في المناطق التي لم تتعرض لأعمال تنقيب مكثفة، ولأن العديد من جوانب علاقات المجموعات المتداخلة التي تبرزها الدراسات اللسانية يصعب توضيحها على أساس البينة الآثارية. ترتبط مثل إعادة التركيب اللسانية تلك بالخمس أو ست آلاف سنة الأخيرة رغم أن محاولات أجريت لتطبيق تلك المناهج على مراحل مبكرة.

4. الرواية الشفوية:

لإعطاء تفسير سليم للروايات التاريخية المحتفظ بها في العديد من المجتمعات الأفريقية علينا أن ندرك الدور الذي تقوم به تلك الروايات في المجتمعات والأسباب الكامنة وراء إعادة تجميعها. عادة ما نجد أن

الروايات الشفهية يتم الاحتفاظ بها بعناية وتتم عملية إعادة سردها وسط أولئك الناس الذين يتوفر لديهم نظام سياسي متمركز. في مثل تلك الحالات فان وظيفة الرواية التاريخية عادة ما تكون منصبة على دعم السلطة القائمة، على سبيل المثال، من خلال تفسير أصل العشيرة أو العائلة الحاكمة والطريقة التي يدعي بها أفرادها حقهم في مزاولة الحكم. تعترف العديد من المجتمعات بهذا الجانب من الرواية الشفهي ولهم مؤرخون رسميون يكون من واجبهم الاحتفاظ بالصيغة التقليدية لتاريخ الدولة ونقله للأجيال اللاحقة.

هناك اتفاق عام على أن الروايات التي تزعم علاقتها بأحداث تبعد إلى أكثر من أربعة قرون أو خمسة مضت لا بدَّ من تفسيرها بحذر خاص، ويمكن أن تكون الأحداث في بعض الحالات قد وقعت في فترة أسبق بكثير من تفسيرها الحرفي الذي تسير إليه الروايات. وتظهر الروايات التاريخية الشفهية، كما هو الحال بالنسبة للتاريخ المكتوب، ميلاً للتركيز على الأحداث السياسية وعلى نشاطات الشخصيات البارزة. وبالتالي فإنها ليست بديلاً لعلم الآثار مصدراً للمعلومات التاريخية. إن تركيب صورة شاملة لماضي أفريقيا يصبح أمراً ممكناً فقط عبر المصادر المتوفرة.

5. مكانة أفريقيا فيما قبل التاريخ بالنسبة للتاريخ الإنساني:

إن الصور التي تقدمها لنا علم الآثار في افريقية جعلت الناس تأخذ الصورة النمطية لما قبل التاريخ انطلاقا من الصورة التي منحتها لنا من إفريقيا. في حين يصعب تقديم إثبات على أن بداية تطور الإنسان كانت في أفريقيا، كما انه في نفس الوقت هناك احتمال قوي بان يكون الأمر كذلك. إن تواتر مجتمعات الصيد و قطف الثمار الأفريقية هو الأكثر امتداداً زمنياً وهو الأكثر تنوعاً كذلك من بين المعلومات التي وصلتنا المعروفة. انه يمتد من أصول البشرية حتى يومنا هذا ويتعزز هذا الاحتمال عند دراسات المتخصصين وبين الانثروبولوجين الاجتماعيين. انه يبين قدرة الإنسان الإفريقي على التكيف مع بيئات واسعة التنوع بدءاً من الصحاري وأماكن مرتفعة متجمدة، إلى الغابات المطيرة والمستنقعات الساحلية.

من جانب آخر فإن التغيرات المبدئية الأساسية التي وقعت خلال مليوني أو ثلاث ملايين سنة لم تكن في أفريقيا بالحجم نفسه الذي شاهدته المناطق الشمالية.

كان **كلارك**[1] قد لاحظ أن التقدم في تقنية تصنيع الأدوات الحجرية وخاصة صناعة السهام مدببة الظهر هو الذي ميز العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا وغرب آسيا بمثابة مقدمة لتطور إنتاج

---

1 اسمه الكامل جون غراهام دوغلاس كلارك(John Douglas Grham Klark)، وهو أستاذ جامعي و عالم آثار وباحث انثروبولوجيا ومؤرخ عصور ماقبل التاريخ بريطاني. يُنسب إليه مصطلح **علم الآثار** الحيوي (Bioarchaeology)

الطعام، بالتالي مقدمة لتطور المدنيات غير الأمية في نهاية المطاف. لكن هذه الفرضية قد تم التشكك في ثبوتها بخاصة بالنسبة لأفريقيا وذلك اعتماداً على حقيقة أن هذا النوع من الصناعات لم يكن شائعاً في أفريقيا جنوبي الصحراء، في حين وجدت فيها منذ تاريخ مبكر للغاية صناعات حجرية دقيقة من النوع الذي صنعه منتجو الطعام المبكرون في أوروبا والشرق الأدنى. أكدت الأبحاث الأخيرة صحة هذه الملاحظة، وأثبتت وجود الصناعات الحجرية الدقيقة في جنوب أفريقيا في تاريخ أكثر قدماً من أي مكان آخر من العالم، وليس أنها أقدم بكثير من صناعات السهام الأوربية والآسيوية فحسب بل أنها ارتبطت بالمتحجرات الأكثر قدماً المعروفة حتى الآن والتي يمكن إرجاعها إلى الإنسان الحديث. تصبح تلك الاكتشافات أكثر أهمية نتيجة البحث الوراثي المعاصر الذي يشير إلى أن كل السكان من نوع الإنسان الحديث يمكن أن يكونوا قد انحدروا من سلف أفريقي. بعيداً عن أن تكون أفريقيا مياهاً خلفية كما افترض في السابق، فإنها ربما كانت في البليستوسين الأعلى رائداً عالمياً بالنسبة لتطور نوعنا وكذلك لتطوره التقني.

احتوى البحث الجاري حالياً كذلك على إعادة تقييم للبيئة الخاصة بأشكال حياة الاستقرار وإنتاج الطعام في أفريقيا. يمكن رؤية تلك التطورات، على الأقل في جنوب الصحراء، بحسبانها قد حدثت تدريجياً وبصورة مستقلة عن العمليات المشابهة في أجزاء العالم الأخرى. يبدو أن حياة الاستقرار ظهرت فيما هو الآن الصحراء الجنوبية والسهل في هيئة بيئات غنية بالمياه سادت هناك في بداية الهولوسين. لقد تم الاعتراف حالياً بان هذه المنطقة تمثل موطناً للعديد من الأنواع النباتية التي حولت فيما بعد لتصبح أنواعاً مدجنة بحسبانها محاصيل غذائية هامة هنا وفي أجزاء أخرى مما وراء الصحراء الأفريقية، وقد تم تطوير محاصيل إضافية في إثيوبيا، وأخرى في هامش الغابات الاستوائية. ورغم أن الحيوانات المدجنة (التي جابت مراعي جنوب الصحراء) قد جلبت، على ما يبدو، من مكان آخر، فانه أصبح واضحاً أن أفريقيا كانت منطقة أساسية للزراعة الأولية للخضراوات المتنوعة واليام والأرز والحبوب الجافة.

باستثناء وادي النيل المصري لم يشهد أي جزء آخر من قارة أفريقيا نشوء مدنية غير أمية محلية، ذلك أن التأثيرات الخارجية كان لها إسهاما بيناً في نشوء مدنية مروى السودانية النيلية ومدنية أكسوم ومدنية الساحل الشرقي لأفريقيا. ما هي العناصر الرئيسة التي أسهمت في نشوء مدنية غير أمية في مصر وغيرها وسجلت غياباً في بقية أجزاء أفريقيا؟ تميز وادي النيل المصري بخصوبة تربته العالية نتيجة فيضانات النهر الموسمية. لكنه من جانب آخر أعاقت الصحاري المحيطة بالمكان أي توسع فيزيقي

وهو علم دراسة عظام الحيوانات والبشر من المواقع الأثرية. وهو أيضا الدراسة العلمية للبقايا البشرية من المواقع الأثرية، وهو نظام معروف في بلدان أخرى باسم علم الآثار العظمي أو علم العظام أو علم العظام القديمة.

للسكان المتكدسين على ضفتي النهر بما يفوق طاقة الوادي الخصيب على استيعابهم. أوضاع شبيهة سادت في مراكز مدنيات مبكرة أخرى: وادي الاندس، والجزيرة الفراتية، والنهر الأصفر، والمكسيك وغيرها. تطلب الضغط الناجم تحكماً ما كان ممكناً تحقيقه إلا عبر نظام اجتماعي سياسي، نظام مقنن بالغ التعقيد من النوع الذي لا يكون صالحاً للمجتمعات الأصغر حجماً والأقل تعقيداً الموجودة في معظم أجزاء القارة الأخرى. قد يقال أن ثراء البيئة الأفريقية وافتقادها وجود حواجز فيزيقية هو ما سمح، على الأقل جزئياً، عادة للمجتمعات الأفريقية بتطوير أشكالها وأنظمتها الخاصة بعيداً عن القيود التي تفرضها المدنية غير الأمية.

لكنه يكون أكثر صلة بموضوعنا الاهتمام بما أنجزته أفريقيا لا بما لم تنجزه. في لب موضوعنا تقييم تطور المجتمعات الأفريقية كما يتبدى من واقع علم الآثار وغيره من العلوم، من وجهة نظر داخلية قبل اللجوء لعقد مقارنة مع نظائرها في الأجزاء الأخرى من العالم. هكذا يكون ممكناً تقييم الإنجازات الأفريقية في محتواها الأفريقي، وتقدير حجم النشاطات الاقتصادية والتقنية، والأنظمة الاجتماعية السياسية، والمعتقدات والتي تم تطويرها وفق الكثافات السكانية المتفاوتة والحواجز الفيزيقية وسبل المواصلات والموارد المتوفرة. هكذا يمكننا رؤية الطريقة المثلى التي تم عبرها استغلال البيئات المختلفة.

يمكننا أن ندرك لماذا بلغت تقنية صب القوالب البرونزية مستوى عالٍ من المهارة المشهود بها في غرب أفريقيا في حين لم تشهد جوانب أخرى – مثل المواصلات – سوى تغير طفيف على مدى مراحل طويلة. يمكن أن نثمن الرواية الشفهي بحسبانه نظيراً للأدب المكتوب، وان نتمعن بالأشكال الفنية القديمة المصنوعة من الأخشاب والمواد الأخرى القابلة للزوال والمعروفة لنا حالياً من نماذج حديثة. ويمدنا علم الآثار الأفريقية بنظرة جديدة وفريدة لتطور الثقافة المؤدي إلى المجتمعات الحديثة التي تعد اليوم لا بحسبانها فاشلة سقطت وهوت إلى طريق فرعي خلال نمو الثورة الصناعية، لكن بحسبانها أمثلة لتعبيرات مختلفة للثقافة الإنسانية المتكيفة كلياً مع ظروف ممارسيها.

المحور الخامس: ما قبل التاريخ في الصحراء الإفريقية الكبرى

أولا: عصور ما قبل التاريخ في الصحراء الإفريقية:

1.حضارات العصر الحجري القديم الأسفل(الباليوليتي الأسفل):

يمتد من ثلاثة ملايين سنة قبل الميلاد إلى 2 مليون سنة ق م، أي انها استمرت مليون سنة، وانتهت مع الفترة الجليدية الثالثة المعروفة باسم (جليد رس). وخلال هذه الفترة الزمنية كان الإنسان ينمى قدراته اليدوية كصانع للآلات الحجرية البدائية اللازمة لحياته اليومية خصوصاً تلك التي تتطلبها ظروف صيد الحيوانات الصغيرة وتهشيم عظامها وسلخ جلودها وكذلك تلك التي يمكن استخدمها لاقتلاع جذور الأشجار والثمار. وقد تشابهت خصائص هذه الآلات في معظم بقاع العالم القديم وسار التطور فيها ببطء شديد.

واهم مظاهر هذه المرحلة في الصحراء الإفريقية هو وجود حضارة الحجاروة المشبذة، وهي الحجارة الكبيرة المشبذة(Taillé) من جهة واحدة أو من عدة جهات، يصل طول الحجارة إلى 22سم وعرضها إلى 11سم، ويصل وزنها إلى 1.5كغ، وانتشرت هذه الأدوات في كل من أولف ورقان(ادرار) وتين زواتين(عين قزام)، وعين صالح وصحراء فزان. كما تميزت بوجود الحضارة الأشولية التي وجدت في المنطقة الشمالية الغربية للهقار، و في إيليزي.

2. حضارات العصر الباليوليتي الأوسط:

وهو العصر الحجري القديم الأوسط، وتختلف مدته من منطقة إلى أخرى، فهو يمتد عموما من 300الف سنة قبل الآن إلى 10الاف سنة قبل الآن، أما في الصحراء الإفريقية فقد مثلته عدة حضارات أهمها؛

أ- الحضارة الموستيرية:

تنسب إلى كهف موستيه بفرنسا، انتشرت هذه الحضارة في فزان الليبية، والهقار، والتاسيلي وغرداية، تتميز بصناعة الشضايا الكبيرة التي استعملت كسكاكين ومكاشط.

ب- الحضارة العاترية:

تنسب إلى بئر العاتر بتبسة، وتميزت بأدواتها الحجرية ذات العنق، ورؤوس السهام الكبيرة والنصال، وامتدت من 45 ألف سنة إلى 20الف سنة من الآن، وانتشرت إلى غاية الصحراء

الإفريقية، وشملت حتى السودان والصومال واثيوبيا، والنيجر وتشاد، كما وصلت إلى الهقار والتاسيلي و منطقة الساحل، ولقد انتهت هذه الحضارة بسبب الجفاف الذي حل بالصحراء.

3.حضارات العصر الحجري القديم المتأخر في الصحراء:

ويسمى أيضا العصر الحجري القديم الأعلى، أو العصر الحجري القديم اللاحق، أو أواخر العصر الحجري، وامتد من 40الف سنة إلى 10 ألاف سنة من الآن، ولقد امتد مع نهاية فترة الرطوبة وبداية فترة الجفاف الذي أصاب الصحراء بعد نهاية الحضارة العاترية مما أدى بالناس إلى الهجرة، واستقرار هم في بعض المناطق ذات المناخ الملائم منها الهقار، التاسيلي.

إن أهم ما ميز حضارة هذه الفترة هو الثقافة الاونانية، والتي تعد بقايا الحضارة العاترية المندثرة، كما تسمى حضارة ما قبل النيوليتية التي ستأتي بعدها، وقد وجدت في تيديكلت بأدرار، وادي الساورة ببشار، ورقان، بالإضافة إلى التاسيلي وحوض الأزواد بشمال مالي. وأهم مظاهرها الحضارية الأدوات الحجرية و رؤوس السهام ، بالإضافة إلى الرسومات التي تعد أقدم الرسومات في الصحراء،

ثانيا:العصر النيوليتي في الصحراء الكبرى:

يسمى بالنيوليتي الصحراوي لاعتقاد لباحثين أن أصله من بلاد السودان رغم أن دراسات أخرى أثبتت أنه ظهر في الهقار و التاسلي كان أقدم، اما ظروف ظهور هذا العصر فبعد انحصار الجليد الذي ضرب أوربا خلال عصر البلاستوسين[1] الأعلى تأثرت شمال إفريقيا والصحراء بتلك التغيرات المناخية، حيث تزايدت الرياح الموسمية المحملة بالإمطار باتجاه الجنوب والصحراء، مما اثر في الشبكة المائية خاصة في الهقار والتاسيلي، وهضبة فزان الليبية وجبال الأكاكوس بين الجزائر وليبيا، مما

---

[1] **البليستوسيني** أو العصر الحديث الأقرب وغالبًا ما يشار إليه بـ» **العصر الجليدي أو العصر البليستوسيني** «هي حقبة أو فترة زمنية من عمر كوكب الأرض بدأت قبل 2,588 مليون سنة وامتدت حتى سنة 11 ألف و700 سنة قبل الآن يطلق على هذه الحقبة **أيضا** اسم «العصر الجليدي» لأن أجزاءً كبيرة من كوكب الأرض كانت مغطاة بالأنهار والصفائح الجليدية في ذلك الوقت. ساد المناخ البارد والجاف معظم مناطق كوكب الأرض، وانخفضت مستويات مياه سطح البحر، وغطت صفائح الجليد مناطق شاسعة من أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية والجنوبية .عاشت معظم الحيوانات المعروفة اليوم في العصر البليستوسيني مثل الأسود والفيلة والغزلان والنباتات مثل أشجار البلوط والصنوبريات . يمكن اعتبار العصر البليستوسيني هي الفترة الأولى التي تطور فيها الإنسان العاقل، وبحلول نهاية هذا العصر كان البشر قد انتشروا في كل مكان من الكوكب تقريبًا. وقد انقرضت العديد من الحيوانات في هذا العصر، لعل أشهرها هو حيوان الماموث الصوفي .ويرجح العلماء والدراسات الحديثة سبب الانقراض إلى أن جسمًا خارج الأرض (يحتمل أنه نيزك (يبلغ عرضه حوالي3 أميال، قد انفجر فوق جنوب كندا أدى هذا الانفجار إلى تقلب كبير في المناخ وانقراض العديد من الكائنات.

جعل هذه المنطقة مهيأة للحياة البشرية واستقطبت السكان إليها، مما مهد لقيام حضارات نيوليتية في الصحراء الإفريقية.

ولقد كان السكان في عصر الهيلوسين[1] يمتهنون الصيد البري و المائي، لكنهم عرفوا صناعة الفخار وهذا دليل على استقرارهم، و لقد سمح لهم استقرارهم بالإبداع الفني من خلال ترك رسوم على جدران التاسيلي والهقار، والتي تعد من أقدم الرسوم الصخرية وأكثرها إبداعا في العالم، كما أنها تعبر عن معتقدات دينية كان يعتقدها سكان الصحراء الوسطى.

ونشير إلى أن الصحراء الإفريقية سبقت منطقة الشرق الأدنى في معرفة العصر النيوليتي ومظاهره الحضارية كصناعة الفخار، بينما تكون قد تأخرت عنهم في تربية الحيوانات والزراعة. ذلك انه من بين الاختلافات بين العصر النيوليتي في أوربا وآسيا وبين العصر النيوليتي في إفريقيا وصحرائها هو انه العصر النيوليتي الأوربي والشرق الأدنى انه أحدث ثورة في إنتاج الطعام بينما في الصحراء الإفريقية بقيت المجتمعات تعيش على الصيد بينما برعوا في صناعة الفخار منذ فترات مبكرة كما عرفوا إقامات شبه مستقرة أيضا.

أ. النيوليتي القديم (ما قبل الرعوي) في الصحراء الإفريقية

يقسم مؤرخو ما قبل التاريخ العصر النيوليتي في الصحراء إلى ثلاث مراحل هي النيوليتي القديم، الوسيط والحديث، أو ما قبل الرعوي وما بعده، تفصلهما فترات جفاف أدت إلى تراجع الحياة في الصحراء، وهناك من يضيف مرحلة رابعة هي العصر النيوليتي المتأخر. ولقد عمدوا على تقسيم تلك المراحل على أساس حضاري فني ثقافي بالدرجة الأولى، وخاصة الفن الصخري بالأساس، ثم الصناعة الفخارية، ثم المخلفات الحضارية الأخرى التي تزخر بها المنطقة.

---

[1] **هولوسين** أو» **العصر الحديث**: هي ثاني وآخر فترة من العصر الرباعي، حيث تمتد من 11,700 سنة مضت إلى يومنا هذا، يمثّل «العصر الهولوسين » الفترة الأخيرة من الزمن الجيولوجي .من المحتمل أنّنا نعيش اليوم في فترة دفء بين فترات جليدية باردة، ومن المتوقع أن الجليد سيعود بعد عدة آلاف من السنين ليغطي مرة أخرى المناطق التي كانت تغطيها الأغطية الجليدية أثناء عصر البلاستوسين وعلى هذا الأساس يعدّ الهولوسين أو «العصر الحديث» استمراراً لعصر البليستوسين) العصر الحديث الأقرب) من حيث توزع القارات والمحيطات والكائنات الحية. غير أنّ تراجع الجليديات إلى مواقعها الحالية خلّف الكثير من البحيرات الكبيرة في المناطق التي كانت تغطيها.

ورغم أن الباحثين يجهلون بداية العصر النيوليتي إلا أنهم يربطون هذه البداية ببداية الرطوبة مع عصر الهولوسين المبكر، حيث ساعد تحسن المناخ على استيطان الإنسان، وبالتالي فالصناعة الحجرية التي عرفها الإنسان خلال العصر الحجري القديم حلت محلها في منتصف الألف السابعة قبل اليوم الصناعة النيوليتية المتمثلة في صناعة الفخار.

إن أهم ما يميز العصر النيوليتي القديم في الصحراء هو:

- تتميز بندرة الأدوات الحجرية الذات الأشكال الهندسية.
- كثرة الفخار وتنوعه، حيث يوجد الأشكال الكروية ذات الفتحات الصغيرة.
- تطور ملحوظ للأدوات الحجرية مثل المسحاج (Raboteur)، المنجل، المخراز(لخياطة الجلود)، الإزميل (ciseau)، المكشط (grattoir)، المنقاش، الذي يستعمل في نقش الحجارة، و أدوات تشبه المشط كان الإنسان يستعملها لتزيين الفخار وزخرفتها. بالإضافة إلى المطاحن.
- يتميز العصر النيوليتي القديم في الصحراء الإفريقية بغناه بالحلي والمجوهرات المصنوعة من العظام وبيض النعام ومواد أخرى: حيث تم العثور على الكثير من المجوهرات الحجرية في عدة مواقع منها تيملاين(Timelain) والتفادست والتي تأخذ أشكالا مربعة ودائرية، كما وجدت خواتم غليظة في منطقة تيويين بالهقار، وهي صناعات تعود إلى أقدم مرحلة من مراحل الفن في الصحراء، وهي تتزامن مع العصر النيوليتي القديم. أي في الوقت الذي كان الناس فيه مازالوا يمارسون الصيد البري و المائي، لكنهم عرفوا صناعة الفخار و الحلي.
- كما تميز العصر النيوليتي القديم ما قبل الرعوي أيضا بوجود رؤوس للسهام إلى جانب الفخار، و التي تعود إلى فترة ما بين 9و8 آلاف سنة قبل الوقت الحالي.
- كما عرف هذا العصر الفن الصخري الذي جسد حياة الصيادين لان الصيد لم يكن قد بدا في هذه المرحلة في الصحراء. فلا توجد أية أدلة على تدجين الأغنام أو الأبقار.

لكن الإشكال الذي يبقى مطروحا كيف لمجتمع متمكن من صنع الفخار والحلي والمجوهرات لم يكن يعرف تدجين الحيوانات و الزراعة و بقي يبحث عن طعامه بطريقة الصيد، رغم انه كان يعرف الاستقرار و الدليل هو صناعة الفخار التي تتطلب الاستقرار. بينما في الشرق الأدنى فقد عرف خلال العصر النيوليتي القديم الرعي و لم يعرف صناعة الفخار لهذا يطلق عليه هناك اسم النيوليتي ما قبل الفخار. لكن الشيء الذي يجب الانتباه إليه هو أن هذه الفترة قد عرفت رطوبة و مناخ ملائم و انهار

كانت تقطع الصحراء وهو ما سهل من التبادل الحضاري و تشكل مراكز حضارية تابعة للعصر النيوليتي القديم.

ب. **المراكز الحضارية في العصر النيوليتي القديم ما قبل الرعوي:**

- **ثقافة الأكاكوس[1]:**

يتميز هذا المركز بوجود ثقافتان تابعتان لعصر الهولوسين، الأولى تعود للهولوسين المبكِّر، و تمثل ثقافة الصيادين و جامعي الثمار، أما الثقافة الثانية فتعود للنيوليتي القديم ويوجد فيها الفخار الذي يشبه فخار التاسيلي بشكله البسيط المزين بخطوط متوازية و متموِّجة، وتعود هذه المواقع إلى فترة مابين 7400 إلى 7900 من وقتنا الحالي.

كما وجد في مواقع هذه المنطقة أواني فخارية كبيرة وصناعات عظمية وحجرية و مجوهرات من العظام، كما تم العثور على مومياء لطفل صغير من الزنوج، وكذا بقايا بشرية تعود للزنوج أيضا. وقد قامت فرقة بحث أثرية ايطالية بحفريات اكتشفت من خلالها كهوف تواترت عليها الإقامات البشرية ثلاث مرات متواترة، المرة الأولى كانت في الألف الثامنة من وقتنا، والاستيطان الثاني كان بين الألف السادسة والخامسة من وقتنا الحاضر، أما الاستيطان الرابع فحدث منذ الألف الرابعة، بعدها جاء الجفاف فهجرها مستوطنوها.

وفي نفس المركز وفي موقع وان تلوكت فيحتوي على نقوش صخرية لأغنام وأبقار، بالإضافة إلى بقايا الفخار المزخرف، وهي تعود إلى الألف السادسة من الوقت الحاضر.

1. ثقافة الهوقار:

يتضمن هذا المركز عدة مواقع منها أدرار تيووين، تمنراست ومنيت، و تضم عدة مواقع أهمها موقع أمكني الذي يضم عدة أدوات منها المطاحن، المدقات الضخمة، رؤوس السهام والصناعات العظمية، بالإضافة إلى الخطاطيف والصنارات التي تبين نشاط صيد الأسماك، بينما الفخار الموجود فهو كثير

[1] **جبال أكاكوس** : هي جبال صخرية تقع في جنوب غرب ليبيا وضمن الصحراء الكبرى، وأقرب مدينة إليها هي غات الأثرية. وتشتهر المنطقة بكهوفها القديمة، كما أنها غنية بمجموعة المنحوتات واللوحات المرسومة على الصخر أعلنت من قبل اليونسكو كموقع للتراث العالمي في العام 1985 بسبب أهمية هذه اللوحات والمنحوتات والتي يعود تاريخ بعضها إلى 21,000 عام. والتي تعكس ثقافة وطبيعة التغيرات في المنطقة .اللوحات والمنحوتات هي لحيوانات مثل الزرافات والفيلة والنعام والجمال وأيضا مجموعة من الناس والأحصنة، صور رجال تصور مظاهر الحياة المختلفة للإنسان القديم مثلا في حالة عزف الموسيقى والرقص

الزخارف ذات الخطوط المتموجة والمتقطعة، وتعود هذه البقايا إلى 6آلاف سنة قبل الوقت الحاضر. لكن فترة وجود الإنسان في هذه المواقع فهو أقدم من هذا التاريخ.

إن البقايا التي اكتشفت في موقع أمكني بالهقار دل على أن الإنسان استقر هنا منذ الألفية الثامنة والسابعة قبل الميلاد، وهم عبارة عن زنوج مارسوا الصيد خلال هذه الفترة لكن هناك إشارات إلى أنهم مارسوا في فترة من الفترات نوع من الزراعة البدائية من خلال وجود بقايا حبوب اللقاح من خلال التحاليل التي أجريت على الموقع. كما أن مركز الأهقار يبين أنه استقطب التجمعات البشرية في العصر النيوليتي القديم والتي كانت مستوطنات زنجية، وكان سبب ذلك يعود إلى الظروف المناخية الجيدة في الهقار والتاسيلي والتي ما تزال ملائمة إلى غاية اليوم بينما كانت في العصر النيوليتي القديم تتميز بوجود غابات متوسطية مما جعلها تستقطب السكان من الشرق ومن الشمال من أجل الصيد، وهو ما أدى إلى توسع نطاق التجمعات السكانية نحو الصحراء الوسطى بوصول بعض الجم وعات النيوليتية النيلية من الزنوج الذين تسللوا إلى المنطقة.